« الإخلاص في الحج »

عادل العلوي

قال الله تعالى في كتابه الكريم : ﴿ **وما أُمروا إلّا ليعبدوا الله مخلصين له الدين ...** ﴾ (٢٤) .

لقد خلق الله الإنسان في أحسن تقويم ، وتمدّح بخلقه في قوله تعالى : ﴿ **فتبارك الله أَحسن الخالقين** ﴾ (٢٥) وركّبه من سرّ وعلن ، وروح وبدن . وبدنه من تراب وروحه من أمر ربه ﴿ **ونفختُ فيه من روحي** ﴾ (٢٦) فأودعه أسرار خلقه . جرمه صغير ولكن انطوى فيه العالم الأكبر . فدنا فتدلّى فكان قاب قوسين أو أدنى ، فعلّمه الأسماء الحسنى وفهّمه البيان الأتم ، وأناله الله تعالى بخضوعه وعبوديته له المقام الشامخ ، فإن العبوديّة جوهرة كنهها الربوبيّة ، وأنطقه بأقواله سبحانه ومَن أصدق من الله قيلاً ، وأصبغه بصبغته ومَن أحسن من الله صِبغة ، وهداه النجدين: نجد الخير ونجد الشر ، وجعله مختاراً

في سلوك الطريقين إمّا شاكراً وإمّا كفوراً .

وخلق لروحه وبدنه منافيات وملائمات ، وآلام ولذّات ، ومنجيات ومهلكات ، فمنافيات البدن الأمراض والأسقام الجسمانية ، وملائماته الصحة واللّذات الجسمانية ، والمتكفّل ببيان تفاصيل هذه الأمراض ، وكيفية علاجها هو علم الطب ، ومنافيات الروح وآلامه هي رذائل الأخلاق وذمائمها التي تهلكه وتشقيه ، وترديه وتهويه إلى أسفل السافلين ، فيكون كالأنعام بل أضل سبيلاً ، وقلبه كالحجارة بل أشدّ قسوة . والمتكفّل ببيان هذه الرذائل الأخلاقية ومعالجاتها هو (علم الأخلاق) .

أما صحة الروح فتتمّ برجوعها إلىٰ فضائل الأخلاق ومحامدها التي تُنجيه وتُسعده في الدارين ، وتأخذ بيديه إلىٰ مجاورة أهل الحقّ عند مليك مقتدر في مقعد صدق .

وإنما بعث الله رسوله خاتم النبيين محمد ﷺ ليتمّم مكارم الأخلاق ، فقال ﷺ : « إنّما بعثتُ لأُتمم مكارم الأخلاق » وقد مدحه ربّه في قوله تعالى : ﴿ **وإنك لعلى خلق عظيم** ﴾[٢٧] . وقد أقسم في سورة الشمس بأحد عشر قسماً أنه ﴿ **قد أفلح من زكّاها وقد خاب من دسّاها** ﴾ حتى قيل أوجب الواجبات الأخلاق الحسنة والمحمودة .

ثم البدن ماديّ فانٍ ، وكل من على الأرض فان . والروح مجرد باق ، وإذا اتّصفت بشرائف الأخلاق كانت منعّمة في السعادة الأبدية ، وإن اتّصفت برذائلها كانت في الشقوة والعذاب مخلّدةً .

فعلى المرء الواعي أن يهذّب نفسه ، ويزكّي أخلاقه ، ويعالج أمراضه ، قبل فوات الأوان . كما أن المريض ينبغي له أن يعالج بدنه وصحته . وكلُّ شيءٍ إنما يعالج بضدّه ، فإن علاج اليابس بالرطب ، والرطب باليابس ، والحار بالبارد والبارد

بالحار ، وهكذا أمراض الأخلاق ، فإن الجهل يُعالج بالعلم ، والبخل بالسخاء ، والكبر بالتواضع ، والشّره بالكفّ عن الشهوات ، ومرض الرياء بالإخلاص . وإن كان ذلك كلّه يستلزم التكلّف والمرارة ، فإنّ مَن أراد أن يعالج مرض بدنه عليه أن يتحمّل مرارة الدواء ، وأن يصبر عن المشتهيات ، وكذلك الروح حيث يُريد الإنسان علاجها فلابد له من احتمال مرارة المجاهدة وشدّة الصبر الذي هو سيّد الأخلاق . فيصبر على فعل الطاعات والعبادات ، وترك المعاصي والآثام ، ليداوي بالصبر أمراض القلوب . وإن علاجها أولى من علاج الأبدان ، فمرض البدن يخلص الإنسان منه بالموت ، ولكن مرض الروح ـ والعياذ بالله ـ يدوم حتى بعد الموت . فالحريّ بمن يخاف على نفسه وقلبه وروحه أن يباشر المعالجة قبل الموت ، فإنه سيندم يوم لا ينفعه الندم .

ثم أصل تهذيب النفس وتزكيتها أن يقف الإنسان على حقيقة نفسه ، ويرى عيوبها ومهلكاتها . فمن كملت بصيرته وتمّت حذاقته ، لم تخف عليه عيوبه . ومن عرف الأمراض والعيوب يسهل عليه التداوي والتخلّص منها . ولكنّ أكثرَ الناس جهلوا عيوب أنفسهم ، فيرون القذى في أعين الآخرين ، ولا يرون الجذع في عيونهم .

ولابدّ من الاعتدال والحكمة في الأخلاق فهما الصحة للقلب والنفس والروح . أما الميل والانحراف عن حدّ الاعتدال فهما المرض والسقم الذي يخاف منه .

وعلاج النفس لمحو الرذائل والأخلاق الذميمة عنها ، يكسبها الفضائل والأخلاق الحميدة ، كما أن تخلية القلب من الأهواء والأمراض النفسيّة ، وتحلّيه هو الآخر بالأخلاق الفاضلة ، يجعل الروح أكثر جلاءً ، ويصقلها حتى تكون كالمرآة تنطبع فيها أسرار الله وكونه .

ثم الغالب على أصل المزاج البدني هو الاعتدال ، وإنما تعتريه العلل المغيرة بعوارض الأغذية والأهوية والأحوال . وكذلك الروح ، فكل مولود يولد على الفطرة المعتدلة الصحيحة ، وإنما أبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه ، فالمحيط والتربية والتعلّم والتعوّد لها الأثر البالغ في اكتساب الإنسان الرذائل والآثام .

ولما كان البدن في ابتداء خلقه لم يخلق كاملاً ، وإنما ينمو ويكمل وتقوى القوى فيه بالنشوء والتربية بالغذاء والماء ، فكذلك النفس تخلق ناقصة ، إلا أنها قابلة للتكامل المنشود في جبلته ، والذي خُلق الإنسان من أجله ، يصل الإنسان بجهده وجهاده إلىٰ كماله ، وأن يكون مظهراً لأسماء الله وصفاته . وتكمل هذه النفس بالتزكية وتهذيب الأخلاق ، وتغذيتها بالعلم النافع والعمل الصالح والإيمان الراسخ . وإذا كان البدن صحيحاً ، فشأن الطبيب حينئذٍ تمهيد القانون وبيانه للصحة والمحافظة عليها ، وإن كان البدن مريضاً فشأن الطبيب أيضاً جلب الصحة إليه ، فكذلك النفس ، فإن كانت سليمة وزكيّة ومهذّبة الأخلاق ، فينبغي السعي من أجل حفظها وسلامة صحتها وبقائها ، واكتساب زيادة صفائها وجلائها ، وإن كانت عديمة الكمال ، فاقدة للصفاء الروحي ، فينبغي الجهد المتواصل لجلب الصحة النفسيّة إليها .

هذا ومن أمراض القلب الخطرة جداً هو الرياء في النوايا والعمل ، فإنّه كدبيب نملة سوداء في ليلة ظلماء على صخرة صلداء ، فمَن يحسّ بدبيبها ؟ وان الرياء من عمل الشيطان الرجيم ليضل الناس ويغويهم ﴿ **قال فبعزّتك لأغوينهم أجمعين ● الا عبادك منهم المخلصين** ﴾[٢٨] .

ويقابل الرياء الإخلاص ، «والأعمال بالنيات » ـ كما ورد في الخبر ـ « ولكل امرئ ما نوىٰ » ، والنيّة من عمل الجوانح وهو القصد

القلبي نحو العمل المقصود اتيانه والمنشود فعله . ولو كانت النية خالصة لله سبحانه فإنها توجب قبول الأعمال، فإنّ الكلم الطيّب ـ وهو الذي فيه الإخلاص كما ورد في الأثر ـ يصعد إلى الله سبحانه ، وإنما يتقبّل الله من المتقين ، والإخلاص أساس التقوى .

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : طوبى للمخلصين أولئك مصابيح الهدى ، تنجلي عنهم كلّ فتنة ظلماء[٢٩] .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم : العلماء كلّهم هلكى إلّا العاملون ، والعاملون كلّهم هلكى إلّا المخلصون والمخلصون على خطر .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم : إذا عملت عملاً فاعمل لله خالصاً لأنّه لا يقبل من عباده الأعمال إلا ما كان خالصاً .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم : ليست الصلاة قيامك وقعودك إنما الصلاة إخلاصك ، وأن تريد بها وجه الله .

وقال أمير المؤمنين علي عليه السلام : العمل كلّه هباء إلا ما أُخلص فيه .

وقال عليه السلام : ضاع مَن كان له مقصدٌ غير الله .

وقال الإمام الصادق عليه السلام : ولابدّ للعبد من خالص النيّة في كلّ حركة وسكون ؛ لأنه إذا لم يكن ذلك منه يكن غافلاً ، والغافلون قد وصفهم الله تعالى فقال : ﴿ **أولئك كالأنعام بل هم أضل سبيلاً** ﴾ وقال : ﴿ **أولئك هم الغافلون** ﴾ .

قال الله تعالى عن لسان نبيّه : ﴿ **قل إنّي أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين ● وأمرت لأن أكون أوّل المسلمين** ﴾[٣٠] .

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إنّ لكل حقّ حقيقة ، وما بلغ عبد حقيقة الإخلاص حتى لا يحبّ أن يحمد على شيء من عمل لله .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم في حديث آخر : « أما علامة [علامات] المُخلص فأربع : يسلم قلبه وتسلم جوارحه وبذل خيره وكفّ شرّه .

وعن أمير المؤمنين علي عليه السلام

قال : مَن لم يختلف سرّه وعلانيته ، وفعله ومقالته فقد أدّ الأمانة وأخلص العبادة .

قال أبو حامد الغزالي في إحياء علوم الدين في بيان حقيقة الإخلاص ـ بعد أن ذكر أقوال الشيوخ فيها ـ : الأقاويل في هذا كثيرة ولا فائدة في تكثير النقل بعد انكشاف الحقيقة ، وإنما البيان الشافي بيان سيد الأولين والآخرين ، إذ سُئل عن الإخلاص فقال : « هو أن تقول ربّي الله ثم تستقيم كما أُمرت » أي لا تعبد هواك ونفسك ولا تعبد إلا ربّك ، وتستقيم في عبادته كما أمرك ـ إياك نعبد وإياك نستعين ـ وهذه إشارة إلىٰ قطع كلّ ما سوى الله عزّ وجلّ من مجرى النظر وهو الإخلاص حقّاً .

ثم من آثار الإخلاص في حياتنا الفردية والاجتماعيّة ، وفي العلميّة والعمليّة ، هو تفجّر ينابيع الحكمة وجريانها من قلب المخلص على لسانه .

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : قال الله عزّ وجلّ : لا أطلّع على قلب عبد فأعلم منه حبّ الإخلاص لطاعتي لوجهي وابتغاء مرضاتي إلا توليت تقويمه وسياسته .

وقال أمير المؤمنين علي عليه السلام : غاية الإخلاص الخلاص . والمخلص حريّ بالإجابة ، وعند تحقق الإخلاص تستنير البصائر ، وبالإخلاص ترفع الأعمال ، وفي إخلاص النيّات نجاح الأمور ، ومَن أخلص بلغ الآمال ، أخلص تنل .

حريّ أن تكتب هذه الكلمات بأقلام من نور على وجنات الحور ، فما أروع قوله عليه السلام : أخلص تنل . كلمتان فقط ولكن فيها ما فيها من الأسرار والحِكم والحقائق ، فإن الإنسان إنما ينال ما ينال بالإخلاص .

وقال الإمام الصادق عليه السلام : إن المؤمن ليخشع له كلّ شيء ويهابه كلّ شيء ، ثم قال : إذا كان مخلصاً لله أخاف الله منه كلّ شيء حتى هوام

الأرض وسباعها وطير السماء .

ثم يا هذا هل بعد الإخلاص من مقصود ومنشود ؟

وقد قال الإمام الباقر عليه السلام : ما بين الحق والباطل إلا قلّة العقل ـ أي من يختار الباطل فهذا من قلّة عقله ـ قيل : وكيف ذلك يا بن رسول الله ؟ قال : إن العبد يعمل الذي هو لله رضىً فيريد به غير الله ، فلو أنه أخلص لله ، لجاءَه الذي يريد في أسرع من ذلك[٣١].

هذا في الإخلاص الذي هو من جنود العقل ، ويقابله الرياء الذي هو من جنود الجهل ، وقد قال الله تعالى في محكم كتابه : ﴿ **ولا تكونوا كالّذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس ويصدّون عن سبيل الله** ﴾[٣٢] .

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لابن مسعود : يا بن مسعود إياك أن تظهر من نفسك الخشوع والتواضع للآدميين ، وأنت فيما بينك وبين ربّك مصر على المعاصي والذنوب . يقول الله تعالى : ﴿ **يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور** ﴾ .

وقال : أشد الناس عذاباً يوم القيامة من يرى الناس أن فيه خيراً ولا خير فيه[٣٣] .

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : المرائي ظاهره جميل وباطنه عليل .

وقال الإمام الصادق عليه السلام : إياك والرياء فإنه من عمل لغير الله وكله الله إلىٰ من عمل له .

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ان الملك ليصعد بعمل العبد مبتهجاً به فإذا صعد بحسناته يقول الله ـ عزّ وجلّ ـ اجعلوها في سجّين إنه ليس إيّاي أراد به .

وفي حديث آخر : تصعد الحفظة بعمل العبد مبتهجاً به فيطأُون الحجب كلّها حتى يقوموا بين يدي الله فيشهدوا له بعمل صالح ودعاء ، فيقول الله تعالى : أنتم حفظة عمل عبدي وأنا رقيب على ما في نفسه ، إنه لم يردني بهذا العمل عليه لعنتي .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم : إن المرائي

يُنادى يوم القيامة : يا فاجر ! يا غادر ! يا مرائي ! ضلّ عملك وبطل أجرك ، اِذهب فخذ أجرك ممّن كنتَ تعمل له .

وقال الصادق عليه السلام : ما على العبد إذا عرفه الله ألّا يعرفه الناس ؟ إنّه من عمل للناس كان ثوابه على النّاس ، ومن عمل لله كان ثوابه على الله ، وإن كلّ رياء شرك .

قال الله عزّ وجلّ : أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، فمن عمل عملاً أشرك فيه غيري فأنا منه بريءٌ فهو للذي أشرك .

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إنّ الله تعالى لا يقبل عملاً فيه مثقال ذرّة من رئاء .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم : يا بن مسعود إذا عملت عملاً من البرّ وأنت تريد بذلك غير الله فلا ترج بذلك منه ثواباً فإنّه يقول : ﴿ **فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً** ﴾ (٣٤) .

وعن شدّاد بن أوس قال : رأيت النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم يبكي ، فقلتُ : يا رسول الله ! ما يبكيك ؟ فقال : إني تخوّفت على أُمتي الشرك أما إنّهم لا يعبدون صنماً ولا شمساً ولا قمراً ، ولكنهم يراؤون بأعمالهم .

وعن الإمام الصادق عليه السلام : يُجاء بعبد يوم القيامة قد صلّى فيقول : يا ربّ صلّيت ابتغاء وجهك فيقال له : بل صليت ليقال ما أحسنَ صلاة فلان اذهبوا به إلى النار .

ولكلّ شيءٍ علامة ، وقد جاء في علامة المرائي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « اما علامة [علامات] المرائي فأربع ؛ يحرص في العمل لله إذا كان عنده أحد ، ويكسل إذا كان وحده ، ويحرص في كل أمره على المحمدة ، ويحسن سمته بجهده » .

وقال الإمام الباقر عليه السلام : الإبقاء على العمل أشدُّ من العمل . قال الراوي وما الإبقاء على العمل ؟ قال : يَصلُ الرجل بصلة ، وينفق نفقة لله وحده لا شريك له فتكتب له سراً ، ثم يذكرها فتمحى فتكتب له علانيةً ، ثمّ

يذكرها فتمحى وتكتب له رياءً .

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في وصف المؤمن : لا يعمل شيئاً من الخير رياءً ، ولا يتركه حياءً . وفي غرر الحكم عن أمير المؤمنين عليه السلام : كلّ حسنة لا يراد بها وجه الله تعالى فعليها قبح الرياء وثمرها قبح الجزاء .

وقال الإمام الصادق عليه السلام : ما كان من الصدقة والصلاة والصوم وأعمال البرّ كلّها تطوّعاً فأفضلها ما كان سرّاً ، وما كان من ذلك واجباً مفروضاً فأفضله أن يعلن به[٣٥] ، فالرياء حرام والمرائي عند الله سبحانه ممقوت ومغضوب عليه ، وقد شهدت لذلك الآيات والأخبار والآثار كما ذكرنا .

هذا غيض من فيض في أخبار الإخلاص والرياء وبيان حدودهما وما يترتب عليهما من الآثار في الدنيا والآخرة .

وبعد هذه الوقفة العاجلة عند عظمة الأخلاق الإسلاميّة ، ودورها البالغ في حياة المسلم الرسالي ، وبعد عرض موجز عن الإخلاص والرياء ، وإنّ القلبَ منشؤهما ومحطهما ، فإنه العالم بالله وهو العامل لله ، والساعي والمخلص والمتقرب إليه ، وهو الكاشف بما عند الله ولديه ، وإنما الجوارح أتباع له ، وخَدَم وآلات يستخدمها القلب كاستخدام الراعي للرعيّة ، وهو المقبول عند الله إذا سلم من غير الله ، وهو المحجوب عنه إذا صار مستغرقاً بغير الله ، وهو المخاطب وهو المطالب ، وهو المثاب والمعاقب ، فيفلح الإنسان إذا زكّاه ، ويشقى ويخيب إذا دَنّسَهُ ودسّاه ، وهو المطيع لله بالحقيقة ، وإنما التي تظهر على الجوارح الظاهرية من العبادات أنواره ، فهو سلطان البدن ، وهو العاصي المتمرد على الله ، وإنما الساري على الأعضاء من الفواحش آثاره . وبظلمانيته ونورانيته تتجلّى المحاسن الظاهرية ومساويها ، فإن كلّ إناء بما فيه ينضح ، وهو الذي إذا عرفه الإنسان فقد عرف نفسه ، ومن عرف

نفسه عرف ربّه ، فتارة يهوي إلىٰ أسفل السافلين ويكون كالأنعام بل هو أضلّ سبيلاً ، وأخرى يصعد إلىٰ أعلى عليين ، ويرتقي إلىٰ عالم الملائكة المقرّبين .

ومن لم يعرف قلبه ليراقبه ويراعيه ويترصّد ما يلوح من خزائن الملكوت عليه وفيه ومنه ، فهو ممّن قال الله تعالى فيه : ﴿ **ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم اولئك هم الفاسقون** ﴾[٣٦] . فمعرفة القلب وحقيقة أوصافه أصل الدين ، وأساس السالكين ، فلا تغفل .

فلابدّ للمؤمن من أن يخلص في نواياه وأعماله ، وحركاته وسكناته ، حتى يلقى الله وليس في قلبه سواه وذلك هو القلب السليم ، الذي ينفع في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون .

والمؤمن الحاج ، والمؤمنة الحاجة لابدّ لهما من الإخلاص في مناسكهما ، وفي حجّهما وعمرتهما ، فإنّ الحجَّ من فروع الدين ومن العبادات ، وشرطها الأوّل النيّة الخالصة متقرّباً بها إلىٰ الله سبحانه وتعالى .

والحجُّ من العبادات الدينية والسياسيّة والاجتماعية ذات المفاهيم القيّمة ، روحياً وبدنياً ، فرديّاً واجتماعيّاً ، في جميع جوانب الحياة من العبادة ، والإقتصاد والسياسة ، والثقافة والحضارة ، والأخوة الإسلاميّة وغير ذلك .

ويكفي في شرافة الحج ، ومقامه الشامخ في الدين الإسلاميّ الحنيف ، أنه أحد الأركان التي بني عليها الإسلام ، فهو من الأسس الأولى التي يعلو عليها الإسلام العظيم . وتتجلّى في الحجِّ روح المحبّة والأخوة والصفاء ، وحكومة الروحانيّات على الماديّات . وكل مسلم متحمّس لدينه يرى في حجّه وعمرته ، أن الإسلام يعلو ولا يعلى عليه ، وأن هذا الدين القيم لو تمسّك به أهلُه حقَّ التمسك ، وطبقوه في كل زوايا حياتهم لحكم العالم ولرفرفت راياته على ربوع الأرض

ولو كره المشركون .

فإن الإنسان الضائع ، والبشرية التائهة تجد انشودتها وسعادتها في هذا الدين ، فهو يتكفل سعادة الإنسان في داري الدنيا والآخرة .

فالحجُّ يمثّل بوضوح عزّ الإسلام وبقاءه وسلطانه ، وكرامة المسلمين وشرفهم ، فليس لأُمّة وملّة من الأمم والملل مثل هذا المؤتمر العالمي العظيم ، والمشهد السنوي الكبير ، الحافل بالخيرات والبركات ؛ ليشهدوا منافع لهم ؛ ليجتمع فيه المسلمون من شرق الأرض وغربها على اختلاف جنسيّاتهم ، وطوائفهم ، واشكالهم وألوانهم ولغاتهم ، ولا يتميز غنيّهم عن فقيرهم ورئيسهم عن مرؤوسهم ، وكلّ واحد منهم وقد اتزر بأحد ثوبي الإحرام وارتدى بالآخر ؛ ليلبي دعوة الله ، التي يدوي صداها عبر الأحقاب والأجيال من شيخ الأنبياء إبراهيم الخليل عليه السلام في قوله تعالى : ﴿ **وأذن في الناس بالحجّ يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فجّ عميق** ﴾[٣٧] .

فالحجّ فلاح وصلاح وقد أفلح من اقامه ، ورفع بنيانه كما أمر الشارع به ، وإنما ركّز القرآن الكريم ، ورسولُ الله الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم ، وأهل بيته الأطهار عليهم السلام على الحجّ لما فيه من المغزى والمعنى الملكوتي ، ولأنّه يحتوي على كثير من العبادات ، والفضائل الأخلاقية ، والخير والإحسان الاجتماعي ، والثواب الأخروي فإنه من بين أركان الإسلام ومبانيه ، عبادة العمر وختام الأمر ، وتمام الإسلام وكمال الدين فيه ، قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : «من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهودياً وإن شاء نصرانياً »[٣٨] .

فهو نقلة اجتماعية ، ورحلة جماهيريّة يتّجه فيها الناس من كل صوب ومكان ؛ لأداء فريضة إلهيّة واجبة ، في مكان مقدس واحد هو أشرف بقاع الأرض : مكّة المكرّمة . وفي زمان واحد من الأشهر الحرم ،

ذي الحجة المبارك ؛ ليمارسوا شعائر موحدة ، ومناسك دينيّة ، وطقوساً خاصة ، تجرّد الإنسان عن عالم الماديّات ، وتحلّق بروحه إلىٰ عالم ملكوتي وروحاني بلا نهاية ، إلى الرفيق الأعلى فيكون قاب قوسين أو أدنى .

ولكن نوايا الناس مختلفة ، والإنسان على نفسه بصيرة ، ولو ألقىٰ معاذيره وأستاره ، فقد روي في خبر من طريق أهل البيت عليهم السلام : « إذا كان آخر الزمان خرج الناس للحجِّ أربعة أصناف : سلاطينهم للنزهة ، وأغنياؤهم للتجارة ، وفقراؤهم للمسألة ، وقرّاؤهم للسُّمعة »[٣٩] .

فليس كلّ من أدى فريضة الحجِّ نال الكمال وبلغ العُلى ، بل بشرطها وشروطها والإخلاص أوّل شروطها .

قال الإمام الصادق عليه السلام :

الحجُّ حجّان : حجٌّ لله وحجٌّ للناس ، فمن حجّ لله كان ثوابه على الله الجنّة ، ومن حجّ للناس كان ثوابه على الناس يوم القيامة[٤٠] .

ولا يخفى أنّ من يدخل الجنة فهو من السعداء لقوله تعالى : ﴿ **وأمّا الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها** ... ﴾[٤١] ، فمن كان سعيداً في حجّه ، إنما يخلص لله في مناسكه ويبتغي وجه الله في أعماله ، ومن عمل للناس فقد خسر الدنيا والآخرة ، فإن الدنيا الدنيّة دار ممرّ ، وأهل الدنيا لا وفاء لهم ، وفي الآخرة كلّ ينادي وانفساه ، وكلّ يفرّ من أخيه وصاحبته وبنيه وعشيرته التي كانت في الدنيا تؤويه . فمن الحماقة وقلّة العقل أن يعمل الإنسان لغير الله سبحانه ، كما ورد في الخبر .

قال الإمام الصادق عليه السلام : مَن حجّ يريد به الله ولا يريد به رياءً وسمعة غفر الله له البتّة[٤٢] ـ أي قطعاً ـ .

فمن حجّ ليُنادىٰ في المجتمعات والنوادي : يا حاج فلان ، يا حاجّة فلانة ، وليفخر على الآخرين ويتطاول عليهم ، لم يصيبه من حجّه إلا التّعب والنّصب . والأعمال العبادية تبطل بالرياء فيجب إعادتها وقضاؤها حينئذٍ . فهل بعد هذا إلا الإخلاص في النوايا والعمل ؟!

وعن الإمام الصادق عليه السلام في حديث يذكر علامات ظهور المهدي عليه السلام : ... ورأيت طلب الحجّ والجهاد لغير الله ... فكن على حذر واطلب من الله النجاة[٤٣] .

ختامه مسك :

ولنختم الموضوع بما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام في أسرار الحجّ ودقائقه ، وعلوّ معانيه وسموّ مفاهيمه :

روي في مصباح الشريعة عنه ـ صلوات الله وسلامه عليه وعلى آبائه وأولاده الطاهرين ـ أنّه قال : « إذا أردت الحجَّ فجرّد قلبك لله تعالى من كلّ شاغل وحجاب كلِّ حاجب ، وفوِّض أمورك كلَّها إلىٰ خالقك ،

وتوكّل عليه في جميع ما تظهر من حركاتك وسكناتك ، وسلّم لقضائه وحكمه وقدره ، ودع الدنيا والراحة والخلق ، واخرج من حقوقٍ تلزمك من جهة المخلوقين ، ولا تعتمد على زادك وراحلتك وأصحابك ، وقوّتك وشبابك ومالك ، مخافة أن يصير ذلك عدوّاً ووبالاً ، فإنّ من ادعى [ابتغى] رضا الله ، واعتمد على ما سواه ، صيّره عليه وبالاً وعدوّاً ؛ ليعلم أنّه ليس له قوّة وحيلة ، ولا لأحد إلّا بعصمة الله وتوفيقه .

فاستعد استعداد من لا يرجو الرجوع ، وأحسن الصحبة ، وراع أوقات فرائض الله وسنن نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم ، وما يجب عليك من الأدب ، والاحتمال والصبر ، والشكر والشفقة ، والسخاوة وإيثار الزاد على دوام الأوقات ، ثم اغسل بماء التوبة الخالصة ذنوبك ، والبس كسوة الصدق والصفا ، والخضوع والخشوع ، وأحرم من كلِّ شيءٍ يمنعك عن ذكر الله ، ويحجبك عن طاعته ، ولبِّ تلبية صادقة صافية ، خالصة زاكية لله تعالى في دعوتك ، متمسّكاً بالعروة الوثقى ، وطف بقلبك مع الملائكة حول العرش ، كطوافك مع المسلمين بنفسك حول البيت ، وهرول هرولة من هواك ، وتبرّأ من حولك وقوّتك ، واخرج من غفلتك وزلّاتك بخروجك الى منى ، ولا تتمنّ ما لا يحلّ لك ولا تستحقّه ، واعترف بالخطايا بعرفات ، وجدّد عهدك عند الله تعالى بوحدانيّته وتقرب إليه ، واتّقه بمزدلفة ، واصعد بروحك إلى الملإ الأعلى بصعودك على الجبل ، واذبح حنجرة الهوى والطمع عند الذبيحة ، وارم الشهوات والخساسة والدناءة والذميمة عند رمي الجمرات، واحلق العيوب الظاهرة والباطنة بحلق شعرك ، وادخل في أمان الله ، وكنفه ، وستره وكلاءته ، من متابعة مرادك بدخولك الحرم ، ودُر حول البيت محقّقاً لتعظيم صاحبه ، ومعرفة جلاله وسلطانه ، واستلم الحجر رضا بقسمته

وخضوعاً لعزّته ، وودّع [ودع] ما سواه بطواف الوداع ، واصف [وصفٌ] روحك وسرّك للقائه يوم تلقاه بوقوفك على الصفا ، وكن بمرأىً من الله ، نقيّاً [ونقٍّ] أوصافك عند المَروة، واستقم على شرط حجّتك هذه ، ووفاء عهدك الذي عاهدتَ به مع ربّك ، وأوجبته له الىٰ يوم القيامة.

واعلم بأنّ الله ـ تعالى ـ لم يفرض الحجّ ، ولم يخصّه من جميع الطاعات بالإضافة إلىٰ نفسه بقوله تعالى : ﴿ **ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً** ﴾ ولا شرع نبيّه سُنّةً من خلال المناسك على ترتيب ما شرّعه ، إلّا للإستعانة والإشارة إلى الموت والقبر والبعث والقيامة ، وفضل بيان السبق من الدخول في الجنّة أهلها ، ودخول النار أهلها بمشاهدة مناسك الحجّ من أولها إلىٰ آخرها لأولي الألباب وأولي النهى [٤٤] ، انتهى كلامه صلوات الله عليه وسلامه ، واغتنموا الفرص يا ضيوف الرحمن ، ويا حجّاج بيت الله الحرام ، وإنما يتقبّل الله من المتّقين المخلصين .

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين .

الهوامش :

(٢٤) البينة : ٥.
(٢٥) المؤمنون : ١٤.
(٢٦) الحجر : ٢٩.
(٢٧) القلم : ٤.
(٢٨) ص : ٨٢ – ٨٣.
(٢٩) كنز العمال ح ٥٢٦٨ ـ الدرّ المنثور ، ٢ : ٢٣٧ .
(٣٠) الزمر : ١١ – ١٢.
(٣١) الروايات نقلناها من « ميزان الحكمة » المجلد الثالث فراجع .
(٣٢) الأنفال : ٤٧.
(٣٣) كنز العمال : ح ٧٤٨٥.
(٣٤) الكهف : ١٠٥.
(٣٥) نقلنا الروايات من ميزان الحكمة ، ٤ : ٢٢ فراجع .
(٣٦) الحشر : ١٩.
(٣٧) الحج : ٢٧.
(٣٨) تفسير ابن كثير ، ١ : ٣٨٦.
(٣٩) المحجة البيضاء ، ٢ : ١٨٩ أخرجه الخطيب البغدادي في تاريخه ، ورواه ابو عثمان الصابوني في كتاب المائتين بلفظ آخر كما في المغني .
(٤٠) كتاب ميزان الحكمة ، ٢ : ٢٧٦.
(٤١) هود : ١٠٨.
(٤٢) ميزان الحكمة ، ٢ : ٢٧٦.
(٤٣) نفس المصدر .
(٤٤) المحجة البيضاء ، ٢ : ٢٠٧.